٤ — فى أدب الاجتماع

الجانب الاجتماعى فى الشعر الحديث

شوقى ، حافظ ، مطران

يكلف الكاتب نفسه شططا ، إذا حاول أن يبرز النقطة التى يلتقى عندها هؤلاء الشعراء فى مناحى التفكير وضروب القول ، فحافظ وشوقى يلتقيان فى الاحتفاء بالصياغة والجرس ، فيؤثران اللفظ الزاخر بالقوة والإيقاع ، وهما بذلك يبعدان عن صاحبهما كثيرا ، ويتجافيان عنه ، فمطران يشغله المعنى عن اللفظ ، أو عبارة أدق ، يلفته الطبع عن الصنعة فجلجلة العبارة وضجة التركيب ليستا فى حسابه ، لأن مطران يفهم كيف تكون صلة فنه بالجمهور ، فلم يورطه معه ولم يندفع فى التيار الذى أخذ بتلابيب غيره واضطره الى الإسفاف والسطحية . ومن هنا آثرنا أن نخص مطران ، بالكلمة الأخيرة ، المميزة لخصائصه واتجاهاته .

لقيت من العنت مع مطران ، ما لم أصادفه مع زميليه ، ذلك لأن ديوانه ليس أجود بضاعته وأخصبها ، فضلا عن أنه ليس كلها ، فهو جزء يسير من إنتاج الرجل دفع به إلى الناس كما يقول الدكتور طه " ليعرض شيئ من شعره القديم ، فيتبين مقدار ما وصل إليه من التجديد . وهو متواضع لا يزعم أنه بلغ من التجديد ما يريد ، وإنما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده ، وهو شجاع لا يعتذر ولا يتنطف ، وإنما يعلن ثورته على القديم ، واغتباطه بالعصر الذى يعيش فيه ، وحرصه على أن يلائم بينه وبين هذا العصر " .

وقد تطلع حافظ إلى شوقى ، يجتهد فى أساليب الصنعة ، ودأب شوقى حتى ملك ناصية الصنعة ، ولم يكن لمطران بد من السير وحده ، فى طريق رسمته له " بيئته الثقافية " التى درج فيها ، وعكف على آثارها زمنا طويلا ، وهو بذلك من المجددين بلا مراء .

وللرجل مبدأ فى الحياة يسير عليه مذ بدأ يقرض الشعر ، هذا المبدأ يلخصه فى أبيات قالها فى إحدى قصائده ، وأجاب بها من ذلك الاستجواب الذى وجهه إليه مندوب جريدة المصور ، وقد اختار المندوب هذا البيت لمطران ، عنوانا لمقاله أو استجوابه :

فسيم احتباسك للقلم والأرض قد خضبت بدم

والأبيات التى أجاب بها مطران هى :

وقف سعيا فى ركاب ، فكيف بى ... ولى كل حول أخذه بركاب
حرام علينا الفخر بالشعر إن تقع ... نسور معانيه وقوع ذباب
وما قولنا الأخلاق ، حين نفوسنا ... تجاويف أرض فى انتفاخ روابى

وشعر الرجل ينطق بما ينبض به حسه ، ويضطرب فى أعماق نفسه ، والذى يقرأ شعر مطران ، لا يصعب عليه أن يعرف مطران ، ولم تزدنى إجابة مطران تعريفا به ، فهو كما يقول الدكتور طه فى كتابه "حافظ وشوقى" "فالحق أنك لا تعرف مذهب شوقى وحافظ فى الشعر إلا إذا قرأت شعرهما واستقصيته ، واستخلصت هذا المذهب من قصائدهما ومقطوعاتهما ، بل من أبياتهما المتفرقة . ولكنك لا تقرأ بيتاً واحداً من شعر مطران إلا بعد أن تكون قد عرفت مذهب الرجل فى الشعر ، وعقيدته الفنية ، وأسلوبه فى فهم الجمال الأدبى ، وعرضه على الناس" .

فمطران واضح لا غموض فيه ولا التواء ، كما أن له مذهباً يتجه به ، إلى غاية وهدف لا يعنيه بعد ذلك ، أأقبل عليه الجمهور ، أم انصرف عنه ؟؟؟ لأنه كما يقول لمندوب جريدة المصور " أنا رجل كما ترون لا مطمع لى فى هذه الحياة ، ولا أنا من طلاب الحياة وعشاق المناصب ، ومن هنا تعزف نفسى عن كل ما يمكن أن يفسر على أنه رغبة فى الظهور ، أو مظهر من مظاهر المنافسة ، وذلك ما أعترف لكم بأننى قد لا أكون فيه على صواب ، ولكنى مع ذلك أتقبل نتائجه ، وإن تكن ضيما وضيرا ، فى غير تذمر أو عتاب".

وأذكر أننى قلت فى خاتمة مقالى عن شوقى "وسنرى ما موقف مطران الذى لاذ بالصمت فى هذه الأيام ، إلا فى مناسبات عابرة لا حظ لها من البقاء والخلود" وأنا مصر على هذا القول ، غضب مطران أو رضى ، لأننى لم أعد الحق فيما أقول ، فمن ذا ينبئنى وينبئ غيرى أن مطران ينظم ولا يذيع فى الناس ؟؟؟ إذن عليه أن يتلقى هذه المؤاخذة راضيا ، ما دامت قصائده حبيسة مكتبه . يقول مطران فى حديثه مع مندوب المصور " وكم أود لو زرتمونى فى بيتى لأريكم عشرات القصائد بل مئاتها ، كلها من صميم الشعر القومى الذى تعيبون على الشعراء إهماله ، ولعلكم تدهشون لو عرفتم أن هذه القصائد ، لو نشرت لملأت خمسة دواوين أو أكثر" .

ويقول فى فاتحة حديثه " إننى ما تركت فرصة من الفرص ، دون المساهمة بما كانت تجود به قريحتى فى نهضة مصر القومية بمختلف نواحيها ، سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية ، وإننى أرخت من رجال هذه النهضة ومن حوادثها كل من يستحق التأريخ وما يستحق التأريخ" . . . وهذا كلام لاغلو فيه ولا إسراف ، وسيأتى اليوم الذى يقدر

الناس فيه مطران ، وفن مطران ، فى شىء كثير من الإعجاب والإكبار لأنه الشاعر الذى استوطن مصر ، وتحاوب معها تجاوبا عميقا حقا ، والذى يهمنا هو الإشارة الى ماله من إنتاج خص به المجتمع المصرى ، والحق لقد أدهشنى — بعد لأى وتعب — تضخم إنتاج هذا الرجل فى هذه الناحية فلم يغفل صغيرة ولا كبيرة ، من شؤون هذا المجتمع ، إلا وقال فيها الشعر ، وقد وسع قلبه الشرق العربى كله ، لأنه من حيث المنبت ، وفى لسوريا لا ينساها ولمصر كذلك ، فقد استوطنها ، واستطاب المقام فيها :

يامصر أنت الأهل والسكن ... وحمى على الأرواح مؤتمن
حبى لعهدك فى نزاهته ... والحب حيث القلب مرتهن
ذاك الهوى هو سر كل فتى ... مما توطن مصر والعلن
هو شكر ما منحت وما منعت ... من أن ينغص فضلها المنن
هو شيمة بقلوبنا طهرت ... عن أن تشوب نقاءها الظنن

بارك مطران مؤسسات بنك مصر ، فساهم بشعره وأنشد قصيدة من خير ما قيل فى بنك مصر ورجاله ، والمال وأثره فى نهضة الشعوب ، إذا أحسن استغلاله ، ووجه توجيها صالحا ، إذ ذاك تنهض مصر حرة قوية :

المال ما زال الوسيط الذى ... يقرب المبتغيات البعاد
وحيث لا مال فلا قوة ... ولا سلاح مانع أو عتاد
ولا اختراع مستطاع ولا ... معرفة تجدى وفن يجاد

وفيها يقول :

نريد مصرا حرة نخمة ... والشعب إن يعزم يكن ما أراد
مالم يضع فى باطل حقه ... وتقتل الشهوة فيه الرشاد
فهل جددنا فى أمانينا ... ونحن من أسواقنا فى كساد

وبين مطران ورجالات مصر صلات وشائج ، وثقتها أسباب العمل لخير مصر ونفعها ، وسأعرض لصلته برجلين : أولهما رجل النهضة الأولى وباعثها من مرقدها ، وأحد الثلاثة الذين طالبوا بحق مصر وسيادتها ، رجل " كفر المصيلحة " عبد العزيز باشا فهمى — مد الله فى حياته — وكفر المصيلحة محسود بين القرى والكفور ، فيبد وأن البلاد كالأناسى فى قسمة الحظوظ ، فيها الشقى والسعيد ، فقد هيأ الله هذا الرجل لهذا الكفر فخلق فيها الأمثلة العليا التى أنشأت الطبيب ، والأستاذ ، والمهندس الخ ، ولعبدالعزيز باشا حنين غلاب ، يدفعه للتفكير دائما فى كفر المصيلحة ، يجليه لنا مطران ، فى شعر بالغ غاية

الروعة ، يعد بحق من أعمق ما قيل فى المجتمع المصرى ، وقد أدار الشاعر المعانى الاجتماعية فى دقة ولباقة . . .

إن كفرا يدعى مصلحة سمـــــاه لاشـــك ألمعى خبـير
ليس بدعا وفى المكان صـلاح أن يراعى فى اسم المـكان النظير
ساسه شيخكم بحـزم وعزم فغـدا وهو بالنـدى مغمور
جعل القوم إخوة يكثر الخـــير فيهم وينـــدر الشرير
حبب السعى فى الحيـاة اليهم فاذا هم وليس فيهم فقـير
باذلا نصحه مشـــيرا بمـا فيـــه فلاح نعم النصـير المشير
مانحـا همه مهمتـه تلـــك وقد يصلح الكثير اليسير

ثم يشير مطران ، إلى عظم تلك المهمة ، التى يؤديها الرجل فى بلده هذا ففى إصلاح الجزء إصلاح الكل ، والواقع أن فى أعناق رجالنا الأعلام — وكلهم نشأ فى الريف — دينا وأمانة لو أدوهما لما بقى الحال كما نرى ! .. لو أن رجالنا عنو بأمر الناشئة فى قراهم وكفورهم كما عنى عبد العزيز فهمى لكان الحال غير الحال ، ولصدرت القرى والكفور الى مصر شبابا طامحا وثابا ، ولكبرائنا فى بلادهم أساليب مؤلمة فى معاملة مواطنيهم وأهلهم وعشيرتهم يمتون فيهم كل استعداد وموهبة ، وذلك فيما أعتقد راجع إلى حرصهم ، على قيمتهم " ومراكزهم " ، بين هؤلاء المزارعين .. أعرف من عظمائنا من يتوفى الإنفاق على نوابغ الطلبة من بلده بل يعد له حجرة فى بيته ، ليضمن له راحة البال واطمئنان الخاطر ، وأعرف منهم من ينادى بأن يظل ابن الخفير خفيرا ، وابن النجار نجارا ، وابن الفلاح فلاحا . .. لا يا سادة تأسوا عبد العزيز فهمى وحذوا منه مثلكم الأعلى :

مصلح الكفر مصلح القطر هل مصـــــر لعمرى إلا قـــرى وكفور
إن يعظم شأن الحواضر إنجا فما الشأن فى الضياع حقير
رب حى أولى التقـــدم حيا وله فى الفـــواهر التأخير
هكذا ساد ربعـــه ورعاه ذلك الســـيد الخصيف الوقور
فهو فيه الأب الحبيب الى كـــــل امرئ والمؤدب المشـــكور

والرجل الثانى الذى أريد أن أشير اليه هو على اسلام باشا ، فكما زار مطران — كفر المصيلحة — وقال فيه شعره زار كذلك مغارس اســلام باشا ومصانعه ببنى سويف وحياهما بأبيات رائعة خالدة ، ففى الصفحة الأدبية من عدد الأهرام الصادر بتاريخ ٦ أبريل سنة ١٩٣٥ كتب مطران بقلمه شيئا عن هذه الزيارة ، مع الشعر فهو يقول فى فاتحة كلمته

" وبسبب اشتغالى بالأمور الاقتصادية فى هذين العقدين الأخيرين من سنى أصبحت ذا شغف بكل ما تحدثه الفطنة والعزيمة من هذه المؤسسات التى تبنى لمصر استقلالها الحقيق وتدفع غوائل الفاقة عن الذين يتعطلون من أبناء العامة فيها ، وما أكثرهم فى هذه الأيام " ثم يقول فى شعر موجها الكلام الى على إسلام باشا :

بين المغارس والمصانع لم يدع ... برهان سبقك حجة لمقصر

ويزيد فضلك فى التقدم ما به ... من قدرة للقادر المتأخر

وغاية هذا العمل ، أن يشغل الأيدى المتعطلة ، فيوفر لها المأكل والملبس ، ويا حبذا لو أن سراتنا حذوا حذو اسلام باشا ، إذن لسلمت مصر من الفاقة القاتلة ، والاستعباد المذل :

كم عاطل وجد السبيل لرزقه ... فمشى اليه وليس بالمتعثر

كم باهل متحير فى أمره ... بهداك عاد وليس بالمتحير

كم باقل حاك الرداء وزانه ... بالوشى بين مرقم ومسطر

أقوات هاتيك المئات كفلتها ... بسماح معطاء وقصد مدبر

وسقيتها الماء القراح ولم يكن ... فى العيش ما تسقاه غير الأكدر

هذا هو البر الصحيح بأمة ... أخنى بها إهمالها من أدهر

وكما بنيت لو السراة بنوا لها ... لنجت من المبتر والمستعمر

ثم لعل أشد الأدواء فتكا بسائر طبقات المجتمع ، هى الخمر ، فهى حينما يدفع إليها نزق الشباب واستهتاره ، وحينما يرغب فيها مظهر " الأرستقراطية الكاذبة " . . . يتناول مطران الخمر فيتكلم عن عملها فى تحطيم الأجسام ، وتخريب البيوت ، وضياع الجاه :

دع الخمر — نصح أخ — إنها ... لتوهى القلوب وتردى النهى

وحيث وجدت دمارا وبؤسا ... ولم تدر مأتاهما ظنها

أما هى تلك التى خربت ... بيوتا بتقويضها ركنها

أما هى تلك التى ضعضعت ... شعوبا ودكت بها مدنها

وكل المربين من كل جيل ... وكل النبيين عنها نهى

وكل أولى العزم قد سبها ... وما فى أولى الحزم من سنها

ثم يهيب "بحماة الحمى" ، أن يشنوا عليها الغارة فيلقوا الكؤوس و يريقوا الدنان ثم يمضى فى تزهيدهم فيها ، فهى شمطاء عجوز ولا يليق أن يتدلهوا فيها ، كل ذلك فى تصوير نادر بديع ، و ينتهى إلى أن لمصر فى شبابها ظنا حسنا فعليهم ألا يخلفوا ظنها :

عليها حماة الحمى غارة ... خير أولى الفتح من شنها
وألقوا دراكا بكاساتها ... تهاض ولا تعصموا دنها
طلاقا لشمطاء توهى القوى ... وتثكل أم الوحيد ابنها
محيب تزايد عشاقها ... بقدر استطالتهم سنها
فيافتية الخير ياخير من ... تقيم بهم أمة وزنها
لمصر بكم حسن ظن اذا ... عففتم فلا تخلفوا ظنها

ثم الملاجئ ، ومقدار ما تسديه الى الأمة ، من السهر على الأطفال ، و بث روح الفضيلة فيهم ، وما يضيرنا لو تطلعنا إلى الأمم الناهضة ؟ لنعود بخير الثمرات ، وأطيب الجنى :

إن لم يصن خلق الصغار مهذب ... ماذا يحاول وازع ومشرع
أو لم يكن أدب السجايا رادعا ... للناشئين ، هل العقوبة تردع
فى كل قطر مجد أمما لنا ... فى أن نجارى مايجارى مطمع ؟
ما بالنا نجد الشعوب أمم منا ... وعلى مثال صنيعهم لا نصنع ؟ ؟
أشرف ببنيان إلى تشييده ... هرع الكرام وحقهم أن يهرعوا
هو للعفاف من الدعارة موئل ... هو للإباء من المهانة مفزع

ثم يستحث الأغنياء ، و يعرض عليهم حالنا السيئة التى عليها أبناء الشوارع ، الذين يغادونهم و يراوحونهم أشباحا أو كالأشباح ، وهم سبة علقة بأنسابهم وثرائهم :

قد حان أن تهدى السبيل جماعة ... أنتم لها الهامات وهى الأذرع
قد حان أن يؤوى الفقير إلى حمى ... قد حان أن تقوى الصغير الأضرع
ذودوا الحرام عن الحلال يدم لكم ... فلأفئدة الوحش الذى هو أجوع
ذاك الشقاء مغاديا ومراوحا ... مما تمض به النفوس وتوجع
ليزل زوال المحل لا بؤسى له ... وليزدهر بمكانه ما نزرع

أظن أنه طال بى الكلام عن مطران ، ومن حق مطران علينا أن نطيل الكلام عنه ، ولا زال بين يدى نماذج من أرقى ما يقال فى المجتمع وأدوائه ، وستظل مطوية حتى يتيح الله لها مخرجا ، وسينصف مطران جيل جديد ، له فى فهم الشعر ذوق خاص ، كونته ثقافة خاصة ، لا تعترف بغير الجديد ، ولا تكبر إلا المبتدع الخلاق .

أحمد عبد المجيد الغزالى